الغلاف

شوقي عشقوتي
lionbars@hotmail.com

نقطة تحوّل في مجرى الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي حرب غزّة تخلط الأوراق وتحدّد مستقبل التسوية

شهد التاريخ الحديث في منطقة الشرق الاوسط، واقله منذ ثلاثين عاما، احداثا كبيرة محورية شكلت نقاط تحول في مجرى الاحداث والاوضاع، وخلطت الاوراق واعادت تكوين المشهد والمعادلة، مثل الدخول العراقي الى الكويت والاجتياح الاميركي للعراق، وانفجار ثورات وحروب الربيع العربي

عملية طوفان الاقصى التي نفذتها حركة حماس في 7 تشرين الاول 2023 هي واحدة من هذه الاحداث التاريخية لانها ستغير وجه المنطقة ومسار القضية الفلسطينية على خطي الصراع والتسوية. هذه العملية فجرت حرب غزة وشرعت ابواب المفاجات والتحولات. هذه الحرب غير المسبوقة في عنفها ودمويتها ستكون على الارجح اخر الحروب. ستكون شرارة التسوية عاجلا ام اجلا، وستفتح صفحة جديدة في كتاب الشرق الاوسط.

دخلت حركة حماس التاريخ من بابه الواسع عندما حققت في يوم واحد ما لم يتحقق للقضية الفلسطينية على مدى سنوات وعقود من النضال والكفاح والمقاومة.

يوم 7 تشرين الاول 2023 هو يوم مجيد بالنسبة الى الفلسطينيين ويوم اسود بالنسبة الى الاسرائيليين حفر عميقا في نفوسهم ووجدانهم، تماما مثلما حفر يوم 11 ايلول 2001 عند الاميركيين وفي ذاكرتهم الجماعية. لم يسبق للفلسطينيين ان تذوقوا طعم الانتصار في الميدان والمواجهات. ولم يسبق للاسرائيليين ان منيوا بالهزيمة وان فقد جيشهم زمام المبادرة وسادته اجواء ضياع وارتباك. ما حصل كان مثابة زلزال ستكون له ارتدادات وتداعيات، وما سيكون من تغيير حتمي لن يكون تغييرا في قواعد اللعبة او في قواعد الاشتباك بين حماس واسرائيل، وانما سيكون تغييرا في معادلة الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي. هذه العملية الاستراتيجية التي فاقت الخيال تشكل حدا زمنيا فاصلا بين مرحلتين ومعادلتين. وما بعد 7 اكتوبر لن يكون بالتأكيد مثل ما قبله.

عملية طوفان الاقصى فاجأت اسرائيل والعالم في طريقتها المباغتة وطبيعتها المعقدة وحجمها الكبير، والطريقة الاحترافية التي جرت فيها وظهرت حماس جيشا منظما. فما حدث لم يكن فشلا للجيش واجهزة الاستخبارات فقط والقيادة العسكرية، وانما كان ايضا فشلا للقيادة السياسية وتحديدا لـبنيامين نتنياهو. نتنياهو الذي ركب موجة اليمين المتطرف ليعود معه شريكا الى رئاسة الحكومة التي دفعت عبر اجراءاتها في المسجد الاقصى والضفة والمستوطنات الوضع الفلسطيني الى اقصى درجات الاحتقان، واوصلته الى نقطة الانفجار. نتنياهو الذي كان السبب في اضعاف الجبهة الداخلية وانقسام المجتمع الاسرائيلي، وفي حصول اكبر حركة احتجاج في الشارع وداخل الجيش. الاسرائيليون المصدومون يشعرون لاول مرة انهم مهددون في امنهم ووجودهم، وانهم فعلا في حالة حرب وجود. ما جرى في مستوطنات غلاف غزة ايقظهم ووحدهم ونقلهم مرة واحدة الى مجتمع حرب. والفلسطينيون المزهوون بانتصار عسكري تاريخي ضد اسرائيل، المعجبون بحركة حماس يشعرون ولاول مرة ان الحرب لها قيمة ومعنى وتستأهل التضحيات، وان تغييرا بدا يحصل على ارض الواقع.

لا تستبعد مصادر ديبلوماسية ان تكون طهران قد دفعت بثقلها لتعطل هذه الموجة العربية، وتحديدا الفلسطينية ـ الفلسطينية، او المستقبلية بين الفلسطينيين واسرائيل في اتجاه التطبيع، وايضا لفتح ثغرة في الجدار الامني الاسرائيلي عشية ما تسرب من معلومات حول استعدادات اسرائيلية قريبة لضرب المنشات النووية الايرانية، والمناورات الاسرائيلية ـ الغربية التي تشارك فيها اكثر من دولة اوروبية، فضلا عن القوات الاميركية، وتحاكي عملية عسكرية ضد ايران.

تربط المصادر بين هدف العملية العسكرية لحماس طوفان الاقصى لجهة مدى الدعم العسكري والمالي والكوادري الذي قدمته طهران، والجهود الاميركية المبذولة على خط التطبيع السعودي ـ الاسرائيلي ـ الفلسطيني (السلطة). وتكشف ان واشنطن مارست الكثير من الضغوط على السعوديين، خصوصا على الاسرائيليين، اي حكومة نتنياهو المتطرفة، للقيام بتنازلات سياسية تقضي بحل القضيتين في خطوة اولى على غرار اتفاقات اوسلو (1993)، وصولا الى حل الدولتين. من هنا، فان عملية حماس كانت توقيتا لقطع الطريق على اي تسوية فلسطينية ـ اسرائيلية تكون طهران بعيدة عنها، مما يعني اخراجها عمليا من الساحة الشرق اوسطية، وبالدرجة الاولى الساحة الفلسطينية، توطئة لعزلها وحصر مشروعها التوسعي في المنطقة.

بهذا المعنى تكون حرب غزة كشفت عن مشروعين مختلفين يتواجهان في المنطقة: المشروع الايراني الذي يندرج في اطار محور المقاومة ويتخذ من ازالة الكيان الصهيوني المغتصب عنوانا وهدفا. والمشروع الاميركي الذي يتأرجح بين مساري التسوية الشاملة على اساس حل الدولتين والاتفاقيات الثنائية اتفاقات التطبيع والسلام بين اسرائيل ودول الخليج، واولها السعودية.

منذ اللحظة الاولى لعملية حماس في غلاف غزة (طوفان الاقصى) التي صدمت العالم واذهلته، كان موقف الرئيس الاميركي جو بايدن وادارته واضحا في تشدده وتطرفه، ليس فقط على صعيد احتضان اسرائيل وتقديم الدعم المطلق لها وارسال البوارج الحربية لرفع معنوياتها المنهارة وتمكينها من استعادة تماسكها وزمام المبادرة العسكرية الذي فقدته لايام، وانما ايضا على صعيد تشجيع اسرائيل وتحريضها على شن الحرب على حماس والقضاء عليها. ولم يسبق ان لجأت واشنطن الى تغذية وتزكية الخيار العسكري في المنطقة، على الاقل منذ ان غادرتها واتجهت الى اولويات اخرى في الشرق الاقصى (الصين) وروسيا (حرب اوكرانيا)، ولطالما كانت ادارة بايدن تحض اسرائيل على التهدئة وضبط النفس وخفض التصعيد مع الفلسطينيين، وتحاول اقناعها بارجحية الخيار ◄

دخلت حماس التاريخ من الباب العريض فهل تخرج من الجغرافيا؟

◄ الديبلوماسي على العسكري في التعاطي مع ايران وملفها النووي.

وبعدما كان الاميركيون يرون في حماس مشكلة وعقبة امام الحل السياسي للصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي طالما انها لا تعترف باسرائيل وتدعو الى ازالتها من الوجود، ولا تعترف باتفاقيات اوسلو وتعمل على تقويض السلطة الفلسطينية، فان هذه النظرة طرأ عليها تحول جذري بعد عملية 7 تشرين الاول، اذ باتت حماس تشكل خطرا على امن اسرائيل ووجودها، وعلى امن المنطقة والمصالح الاميركية فيها، وبعدما كانت حماس مرفوضة كدور سياسي ولا مكان لها في اي مفاوضات وتسوية، فان الامر تطور الان وصارت حماس مرفوضة في المطلق، ليس كدور وانما ايضا كوجود، واصبح القضاء عليها هو عنوان الحرب وهدف المرحلة.

تحت غطاء الدعم غير المسبوق الذي قدمته الولايات المتحدة، وعلى وقع الصدمة ـ الصفعة التي تلقتها من حماس، اندفعت اسرائيل في حرب لا هوادة فيها ضد غزة وحماس، اخذت منحى التدمير المنهجي والتهجير القسري والابادة الجماعية. هذه الحرب لم تنل من حماس، بل دفع ثمنها الباهظ المدنيون الابرياء وسقط منهم الالاف بين قتيل وجريح، ونزح اكثر من مليون من شمال غزة الى جنوبها. واضافة الى الكوارث والاهوال الانسانية، يفتح اي هجوم بري واسع على غزة الباب على كل الاخطار، بدءا من اندلاع مواجهة دموية في كل الضفة الغربية وخطر اشتعال الحرب على الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية، وربما مع الجولان.

خطر توسع النزاع اثار قلق الاميركيين وهواجسهم، وخطر حصول كارثة في صفوف المدنيين اثار قلق وخوف قادة الدول العربية المعنية مباشرة بالحرب، وفي مقدمها مصر والسعودية، خصوصا وان عملية تهجير فلسطينيي غزة في اتجاه الحدود المصرية ترافقت مع حديث عن مشاريع ترانسفير وحلول بديلة. مع بلوغ هذه النقطة الخطرة، عمدت واشنطن الى ادخال تعديلات على موقفها ولهجتها، وعلى خططها وطريقة معالجتها للموقف المتفجر واحتوائه، وفي ثلاثة اتجاهات:

- اعطاء اهتمام اكثر للمسألة الانسانية مع تعيين منسق خاص لهذا الملف (ديفيد ساترفيلد) والدفع في اتجاه انشاء ممرات انسانية امنة لايصال المساعدات.

- فرملة الهجوم البري للجيش الاسرائيلي، ومن ثم التحذير من عواقبه. ووصل الامر عند الرئيس بايدن الى القول ان اعادة احتلال غزة من جانب اسرائيل سيكون خطأ كبيرا.

- الحديث من الان عن حل الدولتين من دون انتظار جلاء غبار الحرب ونتائجها.

هذا التبدل الاميركي بعد مراجعة اولية للوضع، حصل استنادا الى الواقع على الارض الذي يحمل مخاطر جمة في غزة وعلى الحدود مع لبنان تحت غطاء التهديدات الايرانية، وحصل خصوصا استنادا الى الموقف العربي، وتحديدا الصادر عن الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي وولي العهد السعودي الامير محمد بن سلمان، والى نتائج جولة وزير الخارجية الاميركي انطوني بلينكن على دول المنطقة، والتي خلصت الى ان ادانة حماس واقامة حظر عليها ورفع الغطاء عنها بعد الخطأ الجسيم الذي ارتكبته، لا يمكن المضي قدما فيها اذا لم يترافق ذلك مع فتح افق سياسي في هذه الحرب الداكنة يشجع الاعتدال، ويعطي الفلسطينيين بارقة امل بانه يوجد لهم مستقبل عبر التسوية والحل العادل والنهائي.

هذا المنحى الاميركي الجديد عبّر عنه الرئيس جو بايدن قبيل زيارته الى اسرائيل عندما قال انه يوافق على القضاء بشكل كامل على حركة حماس، والقضاء على المتطرفين مطلب ضروري، ولكن يجب ان يكون هناك مسار الى دولة فلسطينية، مكررا الدعوة الاميركية الى حل الدولتين.

تصريحات بايدن المثيرة للاهتمام واكبتها تطورات سياسية مثيرة ايضا: الرئيس الفلسطيني محمود عباس يعلن، وفي عز الحرب، ان سياسات وافعال حماس لا تمثل الشعب الفلسطيني وتطلعاته، وان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين. وعلى خط اخر، نظمت مصر لاستضافة قمة اقليمية دولية حول القضية الفلسطينية خصصت لمناقشة تطورات الحرب في غزة والمخارج والحلول لها، بعيدا عن مشاريع ومحاولات تصفية القضية الفلسطينية على حساب دول الجوار.

خلاصة كل هذا الوضع ان القضية الفلسطينية عادت القضية الاولى في المنطقة والعالم، وهذه واحدة من نتائج حرب غزة. وان الولايات المتحدة عادت الى الشرق الاوسط من الباب العريض، وان التسوية ستكون خط النهاية لهذه الحرب طالت ام قصرت. هذه هي الورقة التي يلعبها الاميركيون من الان فصاعدا لطمانة العرب وعدم احراجهم، ولسحب الورقة الفلسطينية من

يد ايران، ولضمان وضع امن ومستقر لاسرائيل بشكل نهائي.

لا يمكن من الان تحديد التداعيات السياسية والوجهة النهائية للحرب والى ما ستؤول اليه وكيف ستنتهي لان التطورات الميدانية والنتائج العسكرية هي التي ترسم السيناريوهات والنهايات السياسية والتسووية. وهنا فارق كبير بين ان تنتهي الحرب نهاية رمادية على الطريقة التي انتهت اليها حرب تموز 2006 وتبقى حماس على قيد الحياة، او ان تنتهي الحرب الى نهاية حماس التي، وبعدما دخلت التاريخ، تخرج من الجغرافيا وغزة وتصبح خارج المعادلة والمفاوضات والتسويات.

اذا حافظت حماس على وجودها سيكون ذلك كافيا لها لرفع شارة الانتصار لمجرد انها لم تنهزم ولم يتم القضاء عليها، وفي هذه الحال فان نتنياهو سيدفع الثمن مثلما دفعته غولدا مائير بعد حرب اكتوبر 1973، ومثلما دفعه ايهود اولمرت بعد حرب تموز 2006. وفي هذه الحال، تمسك حماس بزمام المبادرة الهجومية ضد اسرائيل، وتمسك من الان فصاعدا بزمام القيادة الفلسطينية شعبيا وسياسيا، وربما سلطويا في المستقبل. حرب تشرين 2023 ستعزز وضع ودور حماس وشرعيتها الشعبية واهليتها القيادية، مثلما عززت حرب تموز 2006 وضع حزب الله ودوره الشعبي والسياسي. حماس ستلعب دور القائدة، ليس فقط في غزة،

> **عملية طوفان الاقصى حضرت عميقا في وجدان اليهود واضعفت الجيش الاسرائيلي**

وانما في الضفة الغربية، حيث تخبئ مفاجات وتعد لتوسيع مسرح المواجهة. وحماس التي تمتلك ورقة مهمة في يدها هي ورقة الرهائن والاسرى، ستكون هي عنوان ومحور التفاوض الاسرائيلي والدولي. وحماس التي حققت انتصارا عسكريا ستعمل على ترجمته الى مكاسب سياسية واوضاع متقدمة داخل مؤسسات السلطة الفلسطينية في مرحلة ما بعد محمود عباس، وهذا ما سيجعل منها عنوانا اساسيا لمفاوضات السلام والحل السياسي للقضية الفلسطينية التي نجحت حماس في اعادتها الى صدارة الاولويات وجدول اعمال المجتمع الدولي، بعدما كانت اصبحت اقله منذ ثورات الربيع العربي قضية منسية ومهملة. ولكن حماس المغامرة عسكريا هل تكون براغماتية في تعاطيها مع حل الدولتين؟!

ولكن هذا السيناريو الوردي المتفائل بالنسبة لحماس لا ينطبق على ارض الواقع بسبب الفيتو الدولي المرفوع في وجه حماس. هذا الفيتو كان بلون برتقالي وكان سببه سياسيا في السابق بسبب ان حماس عامل ضعيف ومخرب للحل السياسي وليست عاملا مسهلا ومساعدا، واصبح اللون بعد 7 اكتوبر بلون احمر، لان الغرب، وتحديدا الولايات المتحدة، صنفت حماس منظمة ارهابية وستتعاطى معها من الان فصاعدا على هذا الاساس.

ثمة تحول جذري في النظرة الغربية الى حماس التي باتت تصنف بعد عملية طوفان الاقصى منظمة ارهابية، وبالتالي لا مكان لها في المعادلة السياسية بعد اليوم، ولا مقعد لها على طاولة المفاوضات. وفي هذه الحال، فان الامور ستسلك احد طريقين:

- الاتجاه الاول ربما يكون باطلاق حل الدولتين على اوسع نطاق، بعدما تكون قد تمت ازاحة التطرف بشقيه الفلسطيني والاسرائيلي، وحيث ان الحرب الحالية ستنهي حركة حماس وايضا حكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة، ولن يفلت نتنياهو من المساءلة والعقاب، وهذا سيحدث بعد الحرب وليس في خلالها. نتنياهو، بمعزل عن الحرب وايا تكن نتائجها، اصبح مثابة جثة سياسية ولا يبقى الا تحديد موعد الدفن. لكن مرحلة حل الدولتين ستكون طويلة وخاضعة لمفاوضات صعبة، وتنتظر اولا جلاء الوضع داخل اسرائيل وتبلور مرحلة ما بعد محمود عباس على مستوى السلطة الفلسطينية ونتائج الانتخابات الاميركية الرئاسية نهاية العام 2024.

- الاتجاه او المسار الثاني الوارد هو ان تسلك اسرائيل طريقا اخر غير حل الدولتين، لان الضربة القوية التي تلقتها على يد حماس جعلتها ابعد عن فكرة الدولة الفلسطينية واقرب الى فكرة الحلول البديلة التي تتراوح بين الترانسفير الاحادي لسكان غزة في اتجاه مصر والتغيير الجيوسياسي في قطاع غزة وربما ايضا في الضفة الغربية، وبين استئناف الاتفاقيات الثنائية، اتفاقيات ابراهام للتطبيع مع دول عربية وخليجية، وفي مقدمها المملكة السعودية. وهذه الاتفاقيات ستصبح اضمن واثبت اذا قضي على حماس واستمرت السلطة الفلسطينية العائدة الى غزة يوما ما ممسكة بناصية الحكم الذاتي، ولكنها تبقى سلطة ولا تصبح دولة.